كتاب الشباب

شاهد عيان - أيها الرواد!
المليون الأول



مجموعة قصص

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

مجموعة قصص :

- شاهد عيان
- أيها الرواد!
- المليون الأول

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة المعارف

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

شاهد عيان، أيها الرواد، المليون الأول – الرياض

٤١ ص، ١٤X٢١سم

ردمك: ٠-٢٢-٠٤٠-٩٩٦٠

١– القصص القصيرة العربية – السعودية أ– العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٩٢٩

رقم الإيداع: ٢٢/١٩٢٩ ردمك: ٠-٢٢-٠٤٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



شَاهدُ عيَان

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

سمعتُ هَذه القصَّةَ العجيبةَ من أحَدِ الأمريكيِّينَ الأفَارقة بالولاياتِ المتَّحدةِ. صادفتُه يصطادُ السَّمَكَ على ضفَّةِ نَهْرِ البوطوماك، بمُحَاذاةِ الشَّلالاتِ الكُبْرَى بولايةِ ڤيرجينْيا. كانَ ذلكَ في السِّتيناتِ، أثناءَ عَملي بسفارَتِنا بواشنْطُن. كنتُ لا أتركُ عطلةً إلا اغتنمتُها للخُروجِ إلى الشَّلالاتِ للفُسحَةِ والهُرُوبِ من ضَوْضَاءِ المَدينةِ.

وبينمَا أنَا أسيرُ بينَ أشْجَارِ الغَابَةِ الكَثيفَةِ وقعَ بصَرَي علَى (رالف هاورد). كانَ قاعداً علَى كرسيٍّ صَغيرٍ، وبجَانبِه سَلَّةٌ، وفي يَدِه قَصَبَةُ صَيْدٍ. ونزلَتُ إِلَيه المنحَدَرَ، وسلَّمْتُ فردَّ عليَّ السلامَ باقتضَاب.

ولأُجاذبَه أطرافَ الحديثِ، سألتُه هَلْ صادَ شيئًا، فأومَأ إِلى السلَّةِ برَأسهِ. وكانَ بالسَّلةِ بعضُ السَّمكَاتِ الصَّغيرةِ والمتوسِّطَةِ الحَجْمِ. وحتَّى أُثيرَ اهتمَامَه، قلتُ لَه إِني صيَّادُ سَمَكٍ كَذلَك، ولكنْ في البَحْرِ، وفي بَلَدي المَغْرب. فسألَني:

«أينَ ذلكَ؟» قلتُ في شَمَالِ إِفْريقيًّا. وحينَ سمعَ كلمَةَ إِفريقيًّا رفعَ عينَيْه معبِّراً عن اهتمَامِه، وسألَ: «أنت إِفريقيٌّ إِذَنْ؟»

وأدركتُ مَا يدورُ في ذهْنِه، فقلتُ شارحًا: «نحنُ في شَمالِ إِفْرِيقيًّا أقلُّ سُمْرةً من إِخْوَانِنا في وَسطِها وجَنُوبِها.»

وحرَّكَ رأسَه مقتنعًا بشرْحي، وانطلق يحدِّثني بلكْنتِه الجنوبيةِ المحبَّبة، فعرَفْتُ أنه حارسُ غابةٍ متقاعدٌ. وجلست بجانبِهِ، فناولني قصَبَتَه لأُجرِّبَ حظِّي، وأَخرَجَ هو أُخرى من غمْدِها الجلدي.

وأثناءَ الحديثِ عرفت أنه هاجرَ مع عائلتِه من ولايةِ ألاباما، وهو غلامٌ إلى قِطاعِ كولومبيا حيثُ توجَدُ واشنطن العاصمةُ. وكيف حصلَ على عمَلِه كحارس غابةٍ، وكيف أنه قضى قرابةَ خمسين سنةً في عملِه هذا، وكيف أن الإدارةَ نَسِيَتْهُ فلم تُحِلْهُ على التقاعُدِ إلا بعد بُلوغِه السبعينَ. فصفَّرتُ دهشةً، وقلت: «لابد أنك لقيتَ في مسيرتِك الطويلةِ هذه كثيراً من الأحداثِ الغريبةِ، فما هي أغربُ حكايةٍ وقعت لك؟»

وحملق قليلاً في الفراغ، ثم ابتسمَ متذكِّراً، وقال:

«منذ حوالي خمسِ سنواتٍ أو سبعٍ، لا أذكرُ، كنتُ أقومُ

بجولتي التفتيشيةِ في غابةٍ قريبةٍ من هنا. كنت أرشُمُ الأشجارَ الميتةَ لقطْعِها، تفاديًا لسقوطها على الناسِ وتفاديًا لخطرِ الحرائقِ... ولفَتَ نظري جِذْعُ شجرةٍ ضخمةٍ كان معلَّقًا بين شجرتين ثابتين غيرِ قادرتين على حملِه. وقفتُ أنظرُ إليه وأردِّد في سرِّي: «بحياتي لا أدري كيفَ تعلَّقَ ذلك الجِذْعُ الكبيرُ بين الشجرتين الشابتين، وكيف لم يسقُطْ، رغم ثقلة!»

ورشَمْتُ الشجرتين بالأحْمَرِ، لأعودَ في اليومِ الموالي بالأدواتِ اللازمةِ لإِسقاطِ الجذعِ وإزالةِ خطرِه على المارَّة، رغم أن احتمالَ مرور أحدٍ من هناك كان بعيداً.

وفي اليومِ الموالي، أعددتُ الحبلَ والمِخْطافَ لإنزَالِ الجذعِ الميِّتِ.

وقبل أن أصلَ إلى المكانِ ترامى إلى سمعِي صوتٌ مرتفعٌ لامرأةٍ غاضبةٍ. كان يبدو أنها تُعنِّفُ رجُلاً وتستنكِرُ اقتراحَه. لم تكن تتكلَّمُ بلهجةِ امرأةٍ سوداءَ. وتوقفتُ عن السيرِ خشيةَ أن أحشُرَ نفسي بين زوجينِ يتخاصمان، فَأُحْرِجُهما.»

وابتسمَ العجوزُ عن فمٍ خالٍ من الأسنانِ، وأضاف:

«أنا الآخرُ كنت شابا في يومٍ من الأيام!»

ثم عاد إلى الموضوعِ: «ووجدتُ نفسي مُجْبَرًا على سماعِ الحوارِ الدائرِ عن غيرِ قصدٍ. وكان واضحًا أن الفتاةَ كانت غيرَ راضيةٍ عن سلوكِ الشابِّ. وكانت تُعبِّرُ له عن خيبةِ أملِها، وتحذِّرُه من وضعِ يدِه عليها، إلاَّ إذا وعدَها بأن يتخلَّى تمامًا عن العملِ الذي كان يُمارِسُه!

واقتربتُ قليلاً لأُنصِتَ إلى ما كان يقولُه لها. كان يهدِّئُ روعَها، ويطلُبُ منها أن تُخَفِّضَ صوتَها، وتُنصِتَ إليه بهدوءٍ.

ومما استطعتُ الْتقاطَه من كلامِه المهموس، فهمتُ أنه ابن رجلٍ قويٍّ في إحدَى دُولِ أمريكا اللاتينية، وأنه جمع ثروةً طائلةً من تجارةِ المخدِّراتِ، ويريدُ من الفتاةِ أن تساعِدَه، من موقِعِها كموظفةٍ في بنكٍ كبيرٍ، على تبييضِ ثروتِه والزواجِ منه. ورفضتْ هي العرضَ رفضًا باتًّا! وحين يئسَ من إقناعِها، تغيَّرَ موقفُه وصوتُه، وقال لها مُهَدِّدًا: «لم يبقَ لك خيارٌ! فقد أصحبتِ تعرفين أكثرَ مما هو في مصلَحتِك!»

وأدركَت هي ورطتَها! وفهِمت سببَ مُصارحتِه لها

برغبتِـه والكشفِ لهـا عن سـرِّه الخطيـرِ في ذلك المكانِ المهـجـورِ... لابد أنهـا كـانت تظنُّ أنه جـاءَ بهـا إلى هناك لرومانسيـة المكانِ. ولابد أنهـا تخيَّلت بقيَّةَ السـيناريو الذي كان مخطَّطًا في دماغِه.

واقـتـربتُ أنا في الوقتِ المناسبِ، لأراه يُخـرِجُ من جيبِ صدرِه خنجرَ صيدٍ كبيراً. ورأيتُهـا تقـفـزُ كـالقطةِ الشَّرِسَةِ، وتتركُ له التريكو الصوفِيَّ الذي أمسكَ بِها مِنْهُ، وتعدو صوبَ الممَرِّ. وقـفـز هو خَلْفَـهـا كـالفَـهـدِ! وكـان قـصـيراً قـويَّ البِنيـةِ، عريضَ الكتِفين، مستديرَ الوجهِ. وكانت هي أطولَ منه قامةً وأكبرَ سنًا. وكـان واضحًا من بُطْءِ حركتِها وسُرعةِ رَكْضِ الشابِّ، أنها واقعةٌ في قبضتِه، وأنها أصبحت، منذ تلك اللحظةِ، مجرَّدَ جسدٍ سيتحوَّلُ قريبًا إلى جُثَّةٍ!

وفاجأتني الأحداثُ، فلم أدْرِ ما أفعلُ. وتذكرتُ المخطافَ الحديديَّ في يدي، فجرَيْتُ خلْفَه عازِمًا على إلْقائه بين ساقيه، لِعَرقَلَةِ مطاردَته للفتاةِ. لم أكن واعيًا بالمأْزَقِ الذي أضعُ نفسي فيه، ولا بالخطرِ الذي سأتعرَّضُ له بسببِ وقوفي في وجهِ

إمبراطورٍ وابن إمبراطورِ مُخدِّراتٍ دوليٍّ كبيرٍ! ووقفتُ خلفَه، وأخذتُ أُديرُ المخطافَ في الهواءِ بالحبلِ مستعدًّا للإلْقاءِ به بين ساقَيهِ، وصِحتُ به: «قِفْ مكانَك!» ويبدو أنه لم يسمعْنِي، فقد تحوَّلَ إلى وحشٍ مدفوعٍ بقوةِ الغريزةِ إلى الانْقضاضِ على فريستهِ!

وفجأةً حدث شيءٌ غريبٌ. سمعنا في هُدوءِ الغابةِ صَريرَ تقصُّفٍ عالٍ. وتوقَّفَ الشابُّ الراكضُ لينظُرَ إلى مصدرِه. كان الصوتُ العنيفُ يُحيطُ بنا من كل جانبٍ. وكان كلٌّ منا يتوقَّعُ أن يسقُطَ عليه شيءٌ ما! واستطعت أنا تحديدَ مكانِ التقصُّفِ بفعلِ التجربةِ، فإذا هو الجِذْعُ الميِّتُ المعلَّقُ يُفْلِتُ من بين الشجرتين، ويهوِي فوق الشابِّ كشفرةِ مِقْصَلَةٍ! وصرخَ صرخةً عظيمةً، ووقع على وجهِه بين الشجرتين تحت الجِذع الضخْمِ.

ويبدو أن الفتاة الهاربةَ سمعت صُراخَة، فتوقفت عن الركْضِ، والتْفتت لترى ما حدث، فرأته واقعًا تحت الجذعِ بلا حراكٍ. ورأتني أقترِبُ منه والمِخطافُ في يدي، فزايَلَها الخوفُ، ووقفت تنتظرُ ماذا سأفعلُ. واقترَبْتُ أنا من الشابِّ المُنبَطحِ

بحذرٍ شديدٍ، وقد رفعتُ المخطافَ لضربِه، إذا صدرت عنه حركةٌ مفاجئةٌ. وناديتُها لتقتربَ، وتنزعَ سلاحَه. وأخذت أشجِّعُها حتى انْحَنَتْ والتقطتِ الخنجرَ الذي كان مُلْقًى بجانبِ رأسِه، ووضعت يدَها على وَريدِه لجسِّ نبضِه، ورفعت رأسَها لتقولَ لي إنه ميِّتٌ! وجَسَسْتُ أنا نبضَ رُسْغِه، فتأكَّد لي ذلك...»

* * *

وسكتَ رالْفْ، وانصرفَ إلى قصبَةِ الصيدِ، وانتبهتُ أنا إلى دقَّاتِ الجرسِ الصغيرِ المعلَّقِ برأسِها، والذي كان يُعْلِنُ عن ابتلاعِ سمكةٍ للطُّعْمِ، ووقوعِها في الشِّصِّ. لابدَّ أننا كنا منغمسين في القصةِ المثيرةِ فلم نسمَعِ الجرسَ. كانت قصبتي هي التي صادت السمكةَ. فهنَّأني، وانحدَرَ إلى حفَّةِ الماءِ بشبكةِ الغرْفِ ليَغْرُفَها، خشيةَ أن تُقَطِّعَ الخيطَ، فقد كانت سمكةَ سالمونْ أكبرَ من المتوسِّطِ. وصعِدَ بها، ووضعها أمامي، فأمسكتُ بها من رأسِها وصدرِها، وقَطَمْتُ رَقَبَتَها، وقلَبْتُ رأسَها إلى الوراءِ بحركةٍ واحدةٍ قويةٍ، فكفَّتْ عن الاضطرابِ، وساح دمُها على الطينِ الأسودِ والأعشابِ. وسألني رالف مستغرِبًا:

- لماذا فعلتَ ذلك؟

- إنها عادتُنا في بلادِنا. وهي نوعٌ من الذبحِ، يعجِّلُ بموتِ السمكةِ، ويحُدُّ من مُعاناتِها. وفيه كذلك فائدةٌ. فخُروجُ الدمِ من السمكةِ يجعلُ لحمَها أصفَى وأطيبَ.

فمطَّ شفتيهِ مستغربًا، وسألني:

- وماذا ستفعلُ بها؟

- ماذا ستفعلُ بها أنت؟ فهي سمكتُك.

- بل إنها لك أنت. أنت الذي صِدْتَها.

- صِدتُها بقصَبَتِك.

- فلنقل، إذن، إنها سمكتُنَا.

- ماذا تقترِحُ أن نفعلَ بها.

- إذا كانت أوَّلَ سمكة تصيدُها في هذا النهرِ أو في هذا الموسمِ، فالتقاليدُ تقتضِي أن نشوِيَها هنا، في عينِ المكانِ، ونأكلَها حتى يُرَافِقَنَا الحظُّ في المرةِ القادمةِ...

- فلْيَكُنْ!

وانصرف هو إلى تنظيفِها، وأنا إلى جمعِ الحطبِ وإشعالِ

النارِ. وجلسنا حولَها، وهي تُشْوَى على حطبٍ ذي رائحةٍ طيبةٍ، وعلى صوتِ خريرِ الشلاّلِ القريبِ، وقد خالجَني شعورُ الرُّوادِ الأوَّلين لمجاهلِ أمريكا، قبل ما يَقرُبُ من أربعمائة عام... وهو شعورٌ لا يمكنُ وصفُه!

وعُدْتُ برالْفْ إلى قصةِ الشاب الذي قتله جذعُ الشجرةِ، فحرك رأسَه مُخالفًا، وقال:

ـ لم يقتُلْهُ الجذْعُ!

ـ ماذا!؟

ـ فَحَصْناه أنا والمرأةُ، فلم نجِدْ أَثَرًا لسقُوطِ الجذعِ عليه. فقد توقَّف الجذعُ، قبلَ أن يسحَقَه، ببُوصَةٍ واحدةٍ!

ـ فما الذي قتلَه إذن؟

ـ لا أدري. لعلَّه الفزَعُ.

وسكت قليلاً، ثم أضاف:

ـ هذا ما قاله الطبيبُ الشرعيُّ.

قال: إنه مات بسكْتَةٍ قلبيةٍ. ولكن، في نظري ولكنها إرادة الله تدخَّلتْ في الوقت المناسبِ لإنقاذِ الفتاةِ البريئة،

ولإيقافِ هذا الفتَى الشرِّيرِ عند حدِّه قبل أن يسْتَفْحِلَ شرُّه!

– وماذا فعلت رفيقَتُه؟

– نصحتُها بالاختفاءِ فوراً حتى لا يقترِنَ اسمُها به وبموتِهِ وبعصابَةِ مافيا المخدِّرات التي كان يترأَّسُها الشابُ في الولاياتِ المتحدةِ نِيابة عن أبيه الرجُلِ القويِّ. وأخبرتُ أنا السلطاتِ بوجودِ جثةِ الشاب، دون الإشارةِ إلى المرأة أو إلى أيِّ شيءٍ آخر.

وقلَبَ رالف السمكَةَ التي بدأت تفوحُ منها رائحةٌ شهيةٌ، وقال:

– كان لموتِ الولدِ عواقبُ وخيمةٌ على أبيه، كما روت الصحُفُ. فقد عثَرت شرطةُ المخدراتِ مع الشابِّ القتيلِ على وثائقَ مُورِّطةٍ لأبيه وللشبَكةِ التي كان يُديرُها. وسقطت الحكومةُ التي كان أبوه رجُلَها القويَّ، وقُبِضَ عليه، وصُودِرتْ جميعُ أموالِه وممتلكاتِه، ومات أثناءَ التحقيقِ بطريقةٍ غامضةٍ...



أيها الرواد!

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

حينَ تسلَّلَ محمدٌ أبوطالب خارجًا من المغرب إلى أميركا لم يكنْ يُدْرِكُ أنه يرتكبُ جريمةً! جريمةً لا تُغْتَفَرُ في حقِّ الهيمنةِ الثقافيةِ الاستعماريةِ الفرنسية. كان يستجيبُ بغريزتِه لنداءٍ غامضِ الأهدافِ، ولكنه قويٌّ واضحٌ. كان كالنحلة في الآية الكريمة: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾.

بعد حصولهِ على الشهادةِ الثانويَّةِ باللغة الفرنسيةِ كان الاتجاهُ الطبيعيُّ الذي ينتظرُه هو فرنسا لمتابعة دراسته الجامعية، ولكنه لأَمْرٍ ما آثرَ التوجُّهَ إلى الولاياتِ المتحدةِ. وبعد عراكٍ طويل مع الإدارة الاستعماريةِ الفرنسيةِ استطاعَ الحصولَ على جوازِ سفرٍ والاتجاهَ إلى ولايةِ ألاباما من بين جميع الولايات! وهناك انغمسَ في الحياةِ الجامعيَّة، وفي الحياةِ الأمريكيَّةِ بكل جوارحه كما يفعلُ دائمًا مع أي مشروعٍ قريبٍ إلى نفسه... وبحيويتهِ وفضولهِ العلميِّ ودماثَةِ أخلاقهِ وحبِّهِ الفطريِّ للناس، وبجدِّه وروحه المرحةِ في نفس الوقت، استطاعَ كسبَ محبةِ جميعِ زملائهِ واحترامِهم.

ووزَّعَ نشاطَه على الفرقِ الرياضيَّةِ والموسيقيَّةِ. فهو عازفٌ موهوبٌ للعود والساكسوفون. وشاركَ في النشاطِ الاجتماعيِّ لكليَّتهِ حتى ما كان يدورُ منه داخلَ الكنيسةِ. فأحبَّه القُسُسُ وجميعُ الذينَ تعارفَ بهم من روّاد الكنيسةِ المتدينين. ولم يكنْ يخُفِي عليهم دينَه، وما كانَ يستطيعُ نظرًا لوضوحِ ذلك في اسمه محمدٍ.

ويذكرُ أن فتاةً متدينةً مالَ قلبُهَا إليه، وحينَ عرفتْ أنه مسلمٌ، ولم تكنْ عرفتْ مسلمًا قبلَه، نظرتْ إليهِ بعطفٍ وإشفاقٍ كبيرين وقالت:

ـ خسارةٌ يا محمدٌ، أنكَ ستذهبُ إلى النارِ!

فقال متظاهرًا بالجدِّ والحزنِ:

ـ أعرفُ! لذلكَ أوصيتُ بِأَنْ يدْفِنُوا معيَ عددًا كافيًا من آلاتِ إطفاءِ الحريق وتكييف الهَواء!

وضحكتِ الفتاةُ ولكزتْه على ذِراعهِ:

ـ ألا تعرِفُ الجدَّ أبدًا!؟ هذا موضوعٌ لا يقبلُ المزاح!

فابتسمَ لها وقال:

– ما الذي يجعلُكِ تعتقدينَ أنني سأدخلُ النارَ؟

– أنتَ لستَ مسيحيًّا، أليسَ كذلك؟

– بَلَى، بلْ أنا مسيحيٌّ وأكثرَ!

– ماذا تعني؟

– أنا مسيحيٌّ بحكم إسلامي. فالمسلمُ لا يكونُ مسلمًا إلا إذا آمنَ باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ. ومن رسلنا نحنُ المسلمينَ محمدٌ وعيسى وموسى عليهمُ السلام. ولا يصحُّ إسلامُ مسلمٍ إلا بالإيمانِ بالأديانِ السماويَّةِ الثلاثةِ.

ففوجئتِ الفتاةُ وانفتحَ فمُها لا إراديًّا. وحينَ تماثلتْ من المفاجأةِ قالت:

– يا إلهي! لم أكنْ أعرفُ ذلك!

وأخذتْ تعتذرُ عن جهلها وقلَّةِ أدبها. فقبلَ محمدٌ عذرَها وقال:

– في الواقعِ، الداخلُ إلى الإسلامِ من اليهودِ والنصارى لا يتركُ دينَه، بل يُضيفُ إليه عَهْدًا آخر. فكما أنَّ اليهوديةَ هي العهدُ القديمُ والمسيحيةَ هي العهدُ الجديدُ، فالإسلامُ إذنْ هو

العهدُ الأجدُّ! فهو آخرُ الرسالاتِ السماويَّة، وقد بَشَّرَ به الأنبياءُ قبل ظهورهِ. وفي القرآنِ ما يشيرُ إلى ذلك في الآيةِ الكريمةِ: ﴿ ... وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾

فاستوقفته قائلة:

– أرجو أن تنتظرَ حتى أستوعبَ كلَّ هذا وأَهْضِمَه!

* * *

وجاءتْ عطلةُ عيدِ الميلادِ فدعاهُ عشيرُه في الغرفةِ بالحيِّ الجامعيِّ إلى بيتِ أهلهِ بتكساسَ. وكانَ العشيرُ ابنَ رجلٍ سياسيٍّ معروفٍ في المنطقةِ وله نُفوذٌ كبيرٌ في المدينةِ. وكانت العطلةُ حوالي تسعةِ أيامٍ، فسألَ محمدٌ مضيفَه:

– هل عندكمْ عملٌ لي؟ أنا لم أعتدْ على الراحةِ والعطلِ الطويلةِ!

وسمعَ الأبُ ذلك فقال له:

– لي صديقٌ له دكانٌ كبيرٌ لبيعِ الأحذيةِ، ولكنَّهُ يهوديٌّ. فهلْ عندكَ مانعٌ من العملِ معه؟

– لا، لا مانعَ بالمرة!

فلما سمع اليهوديُّ اسمَ محمدٍ تحَفَّظَ، فقال له المضيفُ:

- هذا عربيٌّ استثنائيٌّ. خذْه على مسؤوليتي. وإذا لم تتفقْ معه فما عليكَ إلا أنْ تُسَرِّحَهُ متى شئتَ.

وذهبَ محمدٌ أبوطالب إلى الدكانِ، وقابلَ صاحبَه الذي لم يصافحْه، وتسلَّم عملَه في الحال.

ولما كان محمدٌ أبوطالب من مدينهِ فاسٍ العريقةِ في التجارةِ عراقتَها في العلمِ والحُكْمِ، فقد دخلَ في دَوْرِ التاجرِ بسهولةٍ، رغمَ أنهُ لم يكنْ له سابقُ تدريبٍ. وعاملَ الناسَ بلُطفٍ وصِدقٍ لم يألَفوه في باعتِهم. لم يلمسِ الزبناءُ فيه تَهافُتَ البائعِ الأمريكيِّ على إقفالِ الصفقةِ بسرعةٍ لأخذِ العمولةِ والانتقالِ إلى الزبونِ التالي! كان محمدٌ ينصحُ الزبونَ أحيانًا بعدمِ أخذِ حذاءٍ إذا لم يرضَ هو عنه، ولو أعجبَ الزبونَ؛ لأنه في نظرِه غيرُ لائقٍ عليه، ويختارُ له حذاءً آخرَ أنسبَ. وكانَ يُداعبُ الناسَ ويلمسُهُمْ بطريقةٍ وُديَّةٍ تُذيبُ معهمُ الجليدَ...

وفي يومِه الأولَ باعَ محمدٌ من الأحذيةِ أكثرَ مما باعَهُ زملاؤه وزميلاتُه، واستحقَّ على ذلكَ علاوةً خاصَّةً. وطبطبَ

صاحبُ الدكانِ على ظهرِهِ سعيداً به، وقال له:

– لم أكنْ أعرِفُ أنَّ العربَ والمسلمينَ هكذا... فالإعلامُ هنا شَوَّهَ سمعتَكُم! أمَّا أنتَ يا محمدُ، فأنتَ مسلمٌ استثنائيٌّ، ويمكنكَ أن تشتغلَ معيَ متى شئتَ، دكاني مفتوحٌ لكَ دائماً...



المليون الأول

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

وضعتْ حفصةُ الملفَّ أمام رئيسها، ووقفتْ تُفَرِّكُ يديْها، فنظرَ إليها من فوق نظّارتهِ، متسائلاً. فَهَمَسَتْ، مُتَلَعْثِمَةً وجِلَةً من أن ينهرَها بصوتهِ الجهوريِّ المفزِع:

– ذلك الرجلُ... إنه مازالَ ينتظرُ، منذ الساعةِ التاسعةِ صباحًا!

كان العملُ بتوقيتِ رمضانَ متواصلاً حتى الثالثةِ بعد الظهرِ. وكلما تقدمَ النهارُ زادَ طبعُ رئيسِ المجلسِ البلديِّ عبدُ الله حَشْلافٍ، سوءاً وصدرُه ضيقًا، لافتقارِ دمهِ إلى النيكوتينِ. لم يكنْ صيامُه ولا صلاتُه لله، ولكن للانتخاباتِ القادمةِ!

فسألها بامتعاضٍ:

– ألم أقلْ لك اسأليه، ماذا يريد؟!

– حاولتُ معه ثلاثَ مرَّاتٍ، فكانَ جوابُه أنه يريدُ معكم دقيقتين، يبلِّغكمْ فيها رسالةً على وجهِ السرِّ والاستعجالِ، ويذهبُ.

وسألها عن شكله، فقالت:

– بدا لي رجلاً محترمًا، في حوالي الخمسين، يلبس

جلبابًا أسودَ وعمامةً بيضاءَ حسنةَ التصفيفِ، وله لحيةٌ قصيرةٌ سوداءُ. وتبدو عليه علائمُ النعمةِ.

فقال مُمتعضًا:

– لا بدَّ أنهُ أحدُ المتسولينَ المختصِّينَ بجمعيَّاتِ البرِّ والإِحسانِ الوهميَّةِ!

فاستاءتْ حفصةُ، في سرِّها، لسوء ظنِّه بشخصٍ لا يعرفُه، ولكلامهِ غير الإِحسانيِّ في الشهرِ المباركِ، فقدْ كانَ لها عطفٌ خاصٌّ على الرجلِ ذي الهندامِ التقليديِّ، لشَبَهِهِ الكبيرِ بوالدِها المتوفَّى، ولوسامتهِ وحيائهِ الطبيعيِّ، فقد كانَ يغُضُّ طرفَه، كلما مرتْ من أمامهِ، أو وقفتْ للتحدثِ إِليه. وكانتْ هي امرأةً جميلةً بيضاءَ ممتلئةً في حوالي الثلاثين. وكانَ الرئيسُ حشلافُ قد تآمر على تطليقِها من زوجِها العاطلِ، وراءَ ظهرِها، ووظَّفَها عندهُ ليصبحَ وليَّ نعمتِها.

قالتْ هي مخالفةً له بنعومةٍ:

– لا يبدو عليه أنه متسولٌ.

وكان الرئيسُ، فعلاً، مشغولاً بما أصبحَ يُعرَفُ عنده

بصفقةِ العمرِ التي كرَّسَ لها كلَّ طاقتِه وخاضَ الانتخاباتِ البلديَّةَ من أجلِها. كانَ قد اشترى قطعةَ أرضٍ من حوالي أربعين هكتارًا، بثمنٍ زهيد جدًّا، أرادَ مالكُها التخلُّصَ منها، لقيامِ مدينةٍ من أكواخِ الخشبِ والصفيحِ عليها، واستحالةِ إفراغها منهم لاستغلالها. وكان موقعُها قد أصبحَ من أحسنِ مواقعِ المدينةِ، بعد أن دخلتِ المدارَ الحضاريَّ وكبرتِ المدينةُ في اتجاهها.

واستعملَ عبدُ الله حشلافُ نفوذَه في المجلسِ البلديِّ، واقتطعَ من أملاكِ المدينةِ قطعةَ أرضٍ بعيدةً، تقعُ على منحدرٍ، لا يصلُها ماءٌ ولا كهرباءُ ولا مجاري... ووزَّعَ الأرضَ على سكانِ مدينةِ الأكواخِ في مهرجانٍ انتخابيٍّ غوغائيٍّ، وخطبَ فيهم واعدًا إيَّاهُمْ بشَقِّ الطريقِ، وإدخالِ جميعِ المرافقِ الضروريَّةِ. وأخذَ يضغطُ عليهم للانتقالِ بنشرِ الإشاعاتِ والأراجيفِ، ورشَّ الرشاوي في كلِّ اتجاهٍ معارضٍ، حتى اقتربَ من تنفيذِ حكم الإفراغِ بالقوَّةِ!

ولو تمَّتِ الصفقةُ، فسيكونُ مكسبُه أزيدَ من مليونِ

دولارٍ! وكان حريصًا على الوصولِ إلى ذلك الرقمِ السحريّ، وبعدَهُ ستُفتَحُ أبوابُ السماءِ، وتُعبَّدُ الطريقُ لما بعده!

وكسبَ القضيَّةَ ضدَّ سكانِ مدينةِ الأكواخِ المهيضةِ الجناحِ. وتمرَّدَ السكانُ، وقرروا الاعتصامَ بأكواخهم ومقاومةِ الإفراغ بكلِّ وسيلة...

لذلك كان قدومُ هذا الزائرِ الثقيلِ، في هذا الوقتِ بالذاتِ، غيرُ مرغوبٍ فيه بالمرة. فهوَ في حاجةٍ إلى كلِّ دقيقةٍ لإتمامِ الصفقةِ، ما دامتِ الظُروفُ مواتيةً.

ورغمَ ذلكَ، قال لحفصةَ أدخليه، حتَّى يتخلَّصَ من هذهِ الذبابةِ السوداءِ التي تَزِنُّ في أُذنهِ.

ودخل الرجلَ رافعًا رأسه، فملأ الغرفة برائحةِ عطرٍ شرقيٍّ خفيف، لم يستطعْ الرئيسُ تمييزَه. كان خليطًا بين الخزامى والغاليةِ والعودِ. ولاحظَ أنَّ الرجلَ يحملُ حقيبةَ أوراقٍ من جلدِ التمساحِ الأسودِ اللامعِ، يُثْبِتُ الشّهابُ الذهبيُّ المطبوعُ عليها أنها ليست تقليداً رخيصًا. ورغم ذلك رفضَ أن ينبهرَ، فلم يغادرْ مقعدَه، ولم يمدَّ يدَه للسلام، ولم يطلب منه

الجلوسَ، فـجلسَ هـذا على حـافـةِ الكرسيِّ، وبدأَ الكلامَ دون مقدمة:

- لن آخـذَ الكثيرَ من وقتِكُم الثمينِ. وسأدخل مباشرةً، في الموضوعِ. أنا مُرسَلٌ إليكـم من "رابطة حُفَّاظ القرآن الكريم بالمملكةِ والعـالمِ الإسـلاميِّ" وهي رابطةٌ تزيدُ عـضـويَّتُـهـا، والحمدُ لله، عن مائةِ ألفِ حافظ!

فـزمَّ حـشـلافُ شـفـتـيْه، وقـالَ في سِرِّهِ: «هو مـا توقـعتُ؛ متسوِّلٌ على النطاقِ الدوليِّ!» فسأله ساخراً:

- وهلْ لكَ ما يثبتُ ذلك؟

- نعمْ يا سيدي...

وفـتحَ حـقـيـبـةَ الأوراقِ بعنايةٍ، وأخـرجَ منهـا ظرفًا، سلَّمـه إليه، ففتحه هذا، فإذا به رسالةٌ موجهةٌ إليه، بخط «ماكنتوش» أنيق، وبأسلوبٍ رصينٍ كـالذي تُكْتَبُ به أوراقُ الاعـتـمـادِ الدبلوماسيةُ، كـان مـوقِّعُـهـا يطلب منه اسـتـقـبالَ مـبـعوثِهِ والاستماعَ إلى ما سيقوله.

وأعـادَ الرئيسُ حـشـلافُ الورقـةَ إلى الزائر، وهو مـا يزالُ مقتنعًا بأنه متسولٌ:

ـ نعم...

وبمجـرَّد مـا بدأ الرجلُ حـديثَـه، تغـيَّـرَ مـوقفُ الرئيس من الاحتقار إلى العداء. قال الزائر:

ـ جئتكـم في مـوضـوع سكانِ "حيِّ العـافيـة"، الحيّ الذي اشـتـريتُـم أرضَـه، وتُريدونَ إفـراغَـهـا منهم. فـقـد التـجـؤوا إلـينا، لنرفعَ قضيَّتهمْ إلى قاضي القضاةِ.

فقاطعه الرئيسُ ثائرَ الأعصاب:

ـ قاضي القضـاه؟! ليسَ في بلـدِنا، ولا في أيِّ بلدٍ، قاضي قضاةٍ، منذُ الاستقلالِ! في أيِّ عصر تعيشون؟!

ـ أنا آسفُ لسوءِ فـهـمِكـم. قـاضي الـقـضـاةِ عـنـدنا، هو اللهُ تباركَ وتعالى!

فأغمضَ الرئيسُ عينيْه، وابتسم صابراً:

ـ وكيف تَنْوُونَ أن تفعلوا ذلك؟

فأخرجَ الرجلُ غلافًا وسلمه إليه:

ـ هذه الرسالةُ تتضـمَّنُ جميعَ الإجراءاتِ التي نَتَّبِعُها في مثلِ هذه الأحوالِ. وتناول حشلافُ الرسالةَ متأفِّفًا وقرأ:

«السيد عبدالله حشلاف،

رئيس المجلس البلدي.

السلام عليكم، وبعد، فإنَّ ما تفعلُه بسكان حيِّ العافيةِ ظلمٌ كبيرٌ لهؤلاء المستضعفين. ونحنُ نطلُبُ منكم التراجعَ عنه فوراً، وكتابةَ تَعَهُّدٍ بذلك لمبعوثِنا، وإشهادَ اللهِ وأُولي الأمرِ على ذلك. وسوف يجزيكَ اللهُ به خيراً.

"أما إذا أخذتْكَ العِزَّةُ بالإثم، ورفضتَ طلبَنا، فإننا نحذرُك غضبَ اللهِ وعقوبَتَهُ العاجلةَ بإهلاكِكَ وإتلافِ أموالكَ وإصابتكَ بمصائبَ لا يستطيعُ أيُّ إنسانٍ أن يكشفَها عنكَ.

كما أنَّنا نحذرُكَ عقوبةَ اللهِ الأخرويةَ التي يعاقبُ بها الظالمينَ أمثالَكَ..."

لم يستطعْ حشلافٌ إتمامَ الرسالةِ. فقدْ غَلَى دمُه، وتوترتْ أعصابُه، وأخذَ يرتعشُ، وقد امتقعَ وجهُهُ، فرمى بالرسالةِ في وجهِ الرجلِ الهادئ صارخًا:

ـ تُهَدِّدُني في مكتبي، أيها الدجَّالُ المشعوذُ؟! أتعتقدُ أنني أُميٌّ مثلَكِ لأَسقُطَ في هذا الفخِّ البدائيِّ؟!

ووقفَ يصرُخُ في وجهِهِ:

– اخرجْ من هُنَا! اخرجْ، قبلَ أن أرميَ بك في الشارع!

وقفَ الرجلُ، على مَهَلٍ، وكأنَّه كان يتوقَّعُ تلكَ النتيجةَ، وتوجَّه نحوَ البابِ، رافعًا رأسَه كما دخل.

وفي طريقه، مرّ بحفصةَ التي كانتْ تقفُ منْزَعجةً، خلفَ مكتبِها، تفركُ يديْها في حرجٍ، فوضعَ الرسالةَ على مكتبِها، مبتسمًا وقال:

– أرجوكِ أن تُسلِّميه إياها، حين يهدأ.

وخرجَ...

ويبدو أن حشلافَ زاد غضبًا واهتياجًا، بعد أن عاود التفكيرَ في الموضوعِ فخرج من مكتبِه كالثورِ الهائجِ، وتَبِعَ الرجلَ صائحًا:

– تعالَ! تعالَ أيها الدجالُ!

ونظرَ إلى الممرِّ الطويلِ والوحيدِ الذي يمكنُ أن يمُرَّ به الرجلُ، فلم يَرَهُ، فأخذَ يصيحُ بالحرسِ والأعوانِ: «أَرْجِعوا ذلك الرجلَ الملتحِيَ حالاً!»

وصعِدَ العونُ الذي كان واقفًا في مكانِه أسفلَ السُّلَّمِ، وقال مندهشًا: «لم ينزلْ أحدٌ يا سيدي!»

فصاحَ الرئيسُ: «وأينَ ذهبَ؟هل طارَ!؟»

وأثارَ ضجةً بصوته الجهوريِّ المنفعلِ، فانفتحتِ المكاتبُ، وجرى الناسُ في كلِّ اتجاه بحثًا عن الرجل، دون جدوى.

وتوجه حشلافٌ إلى كاتبته:

«وأنتِ، نادي مفوضيةَ الأمن! لابد من القضاءِ على هذه الطفيليات!»

وعاد العونُ من الشارعِ الخالي، ليخبرَ الرئيسَ بأنه لم يرَ أحدًا أو شيئًا يتحركُ! فصبَّ عليه شواظَ غضبِه، وخرجَ إلى بابِ مكتبِه، حيثُ يسمعُه جميعُ موظفي المجلس، وأرسلَ عليهم سيلاً من الشتائمِ والاتهامات بالتواطؤِ والارتشاءِ والخوفِ من السَّحَرةِ والمشعوذين! وهدّدَ وتَوعَّدَ بتنظيفِ المؤسسةِ منهم! وعاد إلى مكتبِه، وصفَقَ البابَ وراءه، وعادتْ حفصةُ إلى مكتبِها، ترتعشُ، وتقرأُ في سرِّها، المعوذتين!

ووقعتْ عيناها على الرسالةِ التي أثارْت كلَّ هذه العاصفةِ،

فمدَّت إليها يداً مرتعشةً، وأخذتْ تقرؤها وعينُها على الباب.

ونزلتْ الرسالةُ برداً وسلامًا على قلبِها، فقدْ كانتْ أفاعيلُ حشلافٍ ومنكراتُه تمرُّ على مكتبِها دون أن تستطيعَ تغييرها إلا بأضعفِ الإيمان!

* * *

وقضى رئيسُ المجلس، عبدُ اللهِ حشلافُ، الأيامَ الأولى من الأسبوعِ المتَبَقِّي لليلةِ القدرِ مشوشَ البال، يحاولُ، عبثًا، أن يطردَ من ذهنهِ صورةَ الرجلِ المعمَّمِ، ذي الجلبابِ الأسودِ والنظراتِ المُتَعَجْرِفةِ. وكلما اقتربتِ الليلةُ المباركةُ، تفاقمَ قلقُه بالنهارِ، وتحوَّلَ إلى كوابيسَ رهيبةٍ بالليلِ... وتمنى لو أنه استطاعَ السيطرةَ على أعصابهِ، وعاملَ الرجلَ معاملتَه لحالةٍ عقليَّةٍ شاذةٍ، وأخرجَه من مكتبه، راضيًا، بوعدٍ كاذبٍ! ويستعيدُ المشهدَ في ذهنه فيرى أن الرجلَ كان مطمئنًا إلى صدقِ رسالتهِ،.لدرجةِ الغرور! وأنه جاءَ ليستفزَّه ويثيرَ أعصابَه عمداً، ولم يتركْ له مجالاً للمساومةِ أو التراضي أو التنازل، محفوظَ الكرامةِ وماءِ الوجهِ!

* * *

وفي ليلةِ القـــدرِ، لبسَ الأبيضَ وتطيَّبَ وذهبَ لصـــلاةِ العـشـاءِ والتـراويحِ مع الوالي في المسـجـدِ الأعظمِ، بعـاصـمـةِ الإقليم. ولـم يكنْ يصلّي لله، بل كـانَ يصَلّي، كـمـا يقـولُ المثلُ الشعبيُّ «صلاةُ القُيَّادْ، الجُمَعُ والأعيادْ!»

ودخلَ المسجدَ من البوابةِ الرئيسيةِ في موكبِ الوالي. ومن بين الجلابيبِ البيضاءِ، لاح له جلبابٌ أسودُ، فإذا هو صاحبُهُ، نذير الشؤمِ، كما كان يسميه، في سرِّه. كان يلتقطُ بَلْغَتَه من أحد الرفوفِ ليخرجَ، وينْظُرُ إلى حشلاف بابتسامةٍ غامضةٍ، ويتـوجَّـهُ نحـوَ البـاب، وكـأنه يقـولُ: «إذا دَخلَتِ الشـيـاطينُ خرجت الملائكةُ!»

وقبيلَ منتصفِ الليلِ غادرَ حشلافٌ المسجدَ، مع حاشيةِ الوالي. ومشى معه إلى سيارتِه، حيثُ أخذَ معه موعداً لتوقيعِ صفقةِ تبادُلِ الأرضِ في اليومِ الموالي. وودَّعَهُ وركبَ سيارتَه، وانطلقَ يصفِّرُ سعيداً بمليونه الأول!

وبعـد حـوالي عـشـرين دقـيـقـةً من السـيـر في طريقِ الغـابة

الكثيفةِ المُلْتَويةِ، وفي ظلامٍ مِحاقٍ قَمَرِيٍّ كامل، أحسَّ، فجأةً، بالخوفِ. فقدْ كان جبانًا بطبعهِ، لا يسافرُ بالليل،إلا مع سائقٍ قويٍّ شجاع.

وأحسَّ بحركةٍ خفيفةٍ في المقعدِ الخلفيِّ، فدقَّ قلبُه بعنفٍ، وأمسكَ بالعجلةِ بيديْنِ مُتَشَنِّجَتَيْنِ، ورفعَ قدمَه عن مداسِ البنزين، ونظرَ في المرآةِ إلى خلفٍ، فخُيِّلَ إليه أنه رأى بزاويةِ عينه وجهَ الرجلِ المُعَمَّمِ، فداسَ المِكْبَحَ بقوةٍ، والتفتَ، فإذا المقعدُ خالٍ تمامًا، وإذا صوتُ اصطدامٍ واحتكاكٍ يملأ سمعَهُ، ويُفْقِدُه الوعيَ!

* * *

وحينَ أفاقَ، عرفَ قبلَ أن يفتحَ عينيْه، أنه في مستشفى. كانتْ روائحُ الأدويةِ وموادُّ التعقيمِ تملأُ خياشيمَه. وترامى إلى سمعِه صوتُ رجلٍ يقولُ لشخصٍ آخرَ ما معناه، إنَّ الطبيبَ الجرَّاحَ سيُضْطَرُّ إلى بتْرِ يديه، نظرًا لأنهما انْسَحَقَتَا وراءَ الجبرَ! وعلم من حديث الرجلين، أنه انْحَرَفَ عن الطريقِ، دون سببٍ ظاهرٍ، ودخلَ تحتَ فرعِ شجرةٍ مائلةٍ، فانكسرتْ زجاجةُ سيارتهِ

الأماميةُ، وانسحقتْ يداه، ولا يُنْتَظَرُ إنقاذُهما إلا بمعجزة!

حاولَ حشلافُ تحريكَ يديه، فوجدَهما مربوطتين بسيرٍ عريضٍ إلى السريرِ، وغاضَ في نفسِه كلُّ أملٍ في أن يكونَ الرجلان يتحدثانِ عن أحدٍ غيرِه. وفاضتْ عيناه بدمعٍ غزيرٍ فانتبهَ الطبيبُ المتحدثُ إليه، وعضَّ على شفتِه السُّفْلَى، حينَ أحسَّ بأنه ارتكب خطأً بظنِّه أن الرجلَ فاقدُ الوعي، وتحدثَ إلى الوالي عن حالتِه بمسمعٍ منه...

وانحنى الوالي على حشلافٍ، يواسيه ويقلِّلُ من شأنِ الحادثةِ. وحتى يُشْعِرَه بأنَّ كلَّ شيء على ما يُرام، قالَ له بأنَّهُ سيبعثُ إليه بوثائقِ الأرضِ، ليوقِّعَها في فراشِه. فقال المريضُ خارجًا من سَكْرةِ المخدِّر:

ـ لا، يا سعادةَ الوالي، لم تعدْ لي رغبةٌ في تلك الصفقة المشؤومةِ! أرجوكم أن تُلْغُوا جميعَ الإجراءاتِ، وتشهدوا عليَّ بأنني تنازلتُ عن الأرضِ لساكنيها، وتُبلِّغُوهم ذلكَ، اليومَ، إذا أمكنَ!

واستغربَ الوالي مما سمعَ، وردَّه إلى ضعفِ تفكيرِ الرجلِ،

بسببِ الحادثِ والمخدِّرِ، فلم يَخْطُرْ لهُ أن يتنازلَ مثلُهُ عن صفقةٍ كان مستعداً أن يقتلَ أو يبيعَ روحَهُ للشيطانِ في سبيلها!

وابتسمَ حشلافُ في وجهِ الوالي ابتسامةَ الفاهمِ لما يدورُ في ذهنِه، وقال:

– ليسَ الأمرُ كما تظنون. أنا فعلاً لم أعدْ في حاجةٍ إلى مال! فلم تبقَ لي حتى يدٌ لعدِّه أو صرفِه أو توقيعِ أوراقِ الصفقةِ! لِنَقُلْ إنه صدقةٌ في هذه الليلةِ المباركةِ...

* * *

وباتَ ليلتَه، لا يخرجُ من كابوس إلا ليدخلَ في آخر...

باتَ يحلمُ بجميعِ الأيْدي المبتورةِ التي رآها في حياتِه، منذ صباه الباكرِ. خصوصاً ما كان يسْتَعْرِضُه منها المتسوِّلون على المارَّة لاسْتِدْرار العطفِ. ورأى نفسَه واحداً منهم يمدُّ يديه المبتورتين، معًا، ليستدرَّ عطفًا مُضاعفًا...

مشهد واحد كان يُرْهِبُه أكثر من غيرِه، في تلك الكوابيس المتكررة. وكلما حاولَ طردَه من مخيِّلته عاد أقوى وأكثرَ دمويَّةً مما كان! كان يرى يديه الجميلتين القويَّتين، كَيَدَيْ عازفِ بيانو كبير، مشدودتين إلى وَضَم جزارٍ في ساحة عموميَّة،

وسطَ مدينةِ الصفيحِ التي اشترى أرضَها، وقد اجتمعَ سُكانُها جميعًا للتفرُّج على عمليةِ القِصاص. وصعد المنصةَ نفسُ الرجلِ ذي العمامةِ البيضاءِ والجلبابِ الأسودِ، ورتَّلَ في البوق، بصوتٍ قويٍّ رخيم، الآيتين الكريمتين: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ**﴾ والآية: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ ثم تقدم الجزارُ بساطورِه الكبيرِ اللامعِ ففصلَ اليدَ الأولى، بضربةٍ واحدةٍ، واهْتَزَّتِ الساحةُ، مُكَبِّرَةً ومُهَلِّلةً، وزغردتِ النساءُ! وفَصَلَ الجزارُ اليدَ الثانية، فعادَ التكبيرُ والزغاريدُ والهتافُ بحياة العدلِ الإلهي، وسُقُوطِ الطاغيةِ! وتكررَ الكابوسُ ثلاثَ مراتٍ. وبعدها لم يستطعِ العودةَ إلى النوم. وكانتْ زوجتُه تستيقظُ مذعورةً، مع كلِّ استغاثةٍ باكيةٍ يُطْلِقُها زوْجُهَا بعد نزولِ الساطورِ وسُقوطِ اليدِ! كان صُراخُه يمزقُ قلبَها. فأشعلتِ النورَ، وجلستْ إلى جانبِه، تمسحُ عرقَهُ، وتهوِّن عليه. فأدناها منه، وقال:

«اسمعي، يا راضيةُ، إِنَّهم يريدونَ قَطْعَ يَدَيَّ معًا، في هذا المستشفى!»

وحين حاولتِ التكذيبَ، أَلْغَى كلامَها بإشارةٍ من عينيهِ قائلاً: «إنني سمعتُ كبيرَ الجراحين بنفسه يقولُها للوالي. فلا تتركيهمْ يفعلون ذلكَ، مهما تَكُنِ الأسبابُ! أنا أُفَضِّلُ الموتَ، على الحياة بلا يدين!»

وبكتِ الزوجةُ الصالحةُ. فسقطتْ دمعةٌ على المصحفِ المفتوحِ في حِجْرها، فمسحتْها وقبَّلتِ المصحفَ وطوتْه ووضعتْه تحتَ وسادته قائلة: «لن يقطعوا شيئًا بإذن الله! فاشْغَلْ لسانَك بذكرِ الله، وقلبَك بالإيمان والتوبةِ والاستغفار.»

فأخذ يتلو كلَّ ما تعلَّمه في صباه في الكُتَّابِ من آيات وأدعيةٍ، بقلبٍ خاشعٍ، ويرددُ لها: «كان ينبغي أن أُصْغِيَ إلى نصيحتكِ بعدمِ الجَرْيِ وراء تلك الأرض، وسرقتِها من سكانِها الضعفاءِ!»

وأخذه النومُ، فراحَ في سباتٍ كالإغماء بلا أحلام!

* * *

وفي الصباحِ، أخذوهُ إلى غرفةِ الأشعةِ، لأخذِ صورةٍ أخيرةٍ لليدين، قبلَ البترِ، ونظر الجراحُ إلى الصورةِ، فأخذهُ العجبُ. ووضعَ صورةَ الأمسِ بجانبها، وأخذَ يقارنُ بينهما، وهو لا يكادُ

يصدِّقُ ما يرى. فقد طرأَ تحَسُّنٌ على اليدينِ لم يكنْ يَتوقعُه!

ودخلَ عليه الطبيبُ، مديرُ المستشفى، فأحالَه الجراحُ على الصورتين، ليرى بنفسه... واتفقَ الاثنانُ على أنها أولُ حالةٍ يُصَادفانِها من نوعها، وأنَّ معجزةً ما حدثتْ! وإذا استمرَّ التحسنُ فسوفَ يعفيهم من البترِ!

وتردَّدا في إِخبارِ المريض بالتحسنِ خَشْيَةَ ارتكاسِ الحالةِ؛ ولكنهما فضلا إِخبارَه، لرفعِ معنوياتِه التي لا شكَّ ستساعدُ على التعجيلِ بالشفاءِ.

وفعلاً، شُفيتْ يَداه تمامًا، فاستقالَ من رئاسةِ المجلسِ، وهجرَ السياسةَ، وقطعَ صلاتِه بجميعِ ذئابِ جمعِ المالِ الحرامِ والإثراء السريع. وانقطع إلى مزرعتِه وأسرته.

فسبحان من يحيي العظامَ وهي رميم.


العبيكان
obeikan
Printing & Packaging

هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبد السلام البقالي، الحاصل على جائزة «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم».

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس، وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، يقرب
الماضي البعيد، ويلقي الأضواء على عوال
بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاض
فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية ا
الحديثة للشباب في العالم العربي.

٩٩٦٠-٤٠-٠٢٢-٠



